ربّ يسر وأعن

الحمد لله والصلاة والسلام على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين..

إنّ أول سؤال يجب أن يسأله المرء لنفسه: ما المشروع الذي وهب نفسه له؟ وعلى ضوء إدراكه ووعيه لأهدافه التي يسعى للوصول إليها وتحقيقها فإنه يضع من الوسائل الكفيلة لتحقيق مشروعه وأهدافه. وكلما ارتفعت مدارك الإنسان وعظمت أهدافه كلما أوجب على نفسه الابتعاد عن صغائر الأمور وتوافهها، وخاض في المعالي التي لا تكون إلا مع الصعوبات ومشاق الأنفس، ومسلم اليوم حائر بين الرضوخ لواقعه الدنيء السيء وبين آماله العظيمة الجليلة، فقوم رضخوا لهذا الواقع مع اختلاف بين هؤلاء الراضخين في درجة الصغار والمهانة، وقوم أبوا إلا العيش مع الوعد القادم الذي يمثل نهاية مشروعهم في الحياة.

لسنا معنيين بتفسير ظاهرة السقوط والتنازل، وليس من الحكمة أن تكون ورقاتنا هذه مكاناً آخر لهؤلاء الساقطين لنشرح ما هم فيه، وتعداد صور سقوطهم ومهانتهم وذلتهم وارتكاستهم في درجات المتخلفين، ولكننا معنيون ولدرجة الوجوب أن نكشف عن أنفسنا، وكيف نفهم واقعنا، وبالتالي أين نضع أنفسنا في زمن الفتن والأهواء وإعجاب الناس بأوثانهم وأصنامهم التي يحملونها ويزينونها لأنفسهم أولاً ثم للآخرين ثانياً.

نحن ندرك تماماً وبدرجة واضحة جداً أننا ضعفاء، ونؤمن كذلك حتى درجة اليقين أن عدم وصولنا إلى أهدافنا ليس لقوة خصومنا فحسب ولكن لأننا ضعفاء أولاً، بل لأن الضعف هو السبب الرئيسي والمهم في هذا الباب، وعجزنا وضعفنا في باب واحد من أبواب القوة والحق، بل هو في كل الأبواب وفي كل الميادين.

فنحن نسأله سبحانه وتعالى أن يستر علينا وأن يرحمنا وأن يجبر كسرنا ويقوي ضعفنا.

* * *

لو أنصفنا أنفسنا لرأينا أن تديّن بعض شبابنا هو تدين مرضي، وأول مظهر من مظاهر هذا التدين المرضي هو إنكار الحقائق، فالكثير منا ظن أنه بمجرد أن توجد الصور والأسماء فهي كفيلة بتحقيق النتائج والوعود الإلهية، فراح يملأ وقته بصناعة الصور والإكثار من الأسماء، وإطلاقه الألقاب على أوهام ذهنية لا حقيقة لها في عالم التكوين والقدر، ثم جلس أمامها يناجي ربه أن يحقق الوعود، وهيهات هيهات أن تأتي الوعود على الأماني والأوهام (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به).

وقد وصل مرض العصاب الذهني لشبابنا أن صار ينشئ المعارك على الأوراق، ويحقق النتائج بالحبر، ثم ينام قرير العين أن جولة جديدة من جولات الصدام قد انتهت بتحقيق النصر وإحراز التقدم. بل وصل المرض إلى اعتقاد البعض أن تحقيق الأمل الأعظم قد وقع وذلك بأن صار لنا دولة وخلافة!!

لقد صدق من قال أن العصابي (مريض الأعصاب) عندما يعجز عن تحقيق الهدف فإنه يبنيه في داخله بأوهامه ويعكف عليه فرحاً.

وإن من صور هذا المرض أن انتقلت معارك الشباب إلى مواطن يسهل فيها تحقيق النصر تاركين أرض المعركة الكبرى، وكان من صورها أنه عندما عجزنا أن نزيل طاغوتاً من مكانه رضينا أن نحقق الانتصارات العظيمة في أوهامنا ومخيلاتنا على أنفسنا من إخواننا.

إن هذا الشيوع الفاحش لتلك المناظرات الوهمية، أو تلك السجالات الكلامية الدائرة بين الأفراد والتجمعات هو خير دليل على انتكاستنا نحو الوهم والخيال. اسمع إلينا واجمع كم مرة تتردد بيننا هذه العبارات: (لقد أُسقط في يده..)، (لقد عجز عن الرد..)، (لقد واجهته فسكت..)، (أنا أتحداه أن يقف أمامي..).. وهكذا تطول القائمة المستمدة من الواقع المرضي والتي في أغلبها قد بناها أفرادنا من الأسواق الجاهلية.

وينسى الجميع أن الحديث الذي يجب أن يدور هو حديث النصيحة بكل مراتبها الحكيمة من اللين والشدة وغيرها لا حديث الغلبة اللفظية والمعارك الكلامية.

إن استجابة طالب العلم للمرض وذلك بأن يسمح بوجوده ووجود مخالفه على (حلبة مصارعة) ليتحقق السعار الجماعي عند الأتباع لهو دليل على أن المريض يقود طبيبه، وأن الشباب الجاهل حقق مراده بأن وجد في العمل الإسلامي ما كان يعيشه جاهلياً وهو يشاهد مصارعة الثيران أو مباراة الديكة.

* * *

لو أنصفنا أنفسنا لحرصنا على الموجود فهو رأس المال ولم نضيعه طمعاً في المفقود، وإلا فُقِدَ الموجود ولم يتحقق المفقود وقد كان وسيكون.

في الإنسان رغبة دائمة وشوق قوي إلى الغائب البعيد، وزهد واحتقار للمملوك القريب، ويدوم طلب الإنسان ليتحقق التملك حتى إذا حصل استهان به واحتقره. ولذلك يا خيبة وخسارة من عرض نفسه عند من يتابع هواه ولا يعفر حقائق الحياة وسنن الكون.

كان كلامنا وحورانا يحمل الألفاظ التي يفهمها إخواننا وشبابنا لأنهم أولى الناس باهتماماتنا ثم ظننا لوهلة أننا لو غيرنا من سحنتنا (وهي إسلامية كهيئتنا) وطورنا الخطاب: فجعلنا المجاهدين ثواراً، وإن لم تقبل فمعارضة مسلحة، وسمينا العالم المجاهد محرراً ثائراً، وإن لم تقبل فمعارض سياسي، وهكذا لو (تلحلحنا) ثم تحللنا فيمكن أن نكسب هذا المفقود، لكن صبراً سيكسبكم الآخر وستفقدون أنفسكم، فالشيطان مكانه منذ يوم ضلاله وإلى يومنا هذا، ولن ينتقل إليكم بل ستنتقلون إليه..

أواه لو أنصفنا أنفسنا وقبلنا النصيحة.

* * *

لو فهمنا مشروعنا وعلمنا جوانبه وآفاقه لما رأينا شبابنا يحتقرون كل شيء ما لم يكن رصاصة، فلما جاء إلى مكان ليس فيه هذه الرصاصة عجز أن يفهم ما يمكن أن يفعله، فبدل أن يفهم ارتكس جاهلياً.

لنعترف أولاً أن تحقيق الهدف النهائي في أيامنا هذه ممنوع بسبب عجزنا وضعفنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس.

وليستقر في قلوبنا أننا لن نتخلى عن أهدافنا مهما طالت الطريق وبعدت الشقة.

فما المطلوب منا أمام هذا الثقل؟

ليس هناك إلا طريقين لا ثالث لهما:

إما أن نتنازل عن بعض الجهد مقابل بعض الهدف الذي يقدمه لنا الغير بعد أن يسلبنا شرعيتنا،

وإما أن نقبل بأن نموت!! وأن نتجمد!! وأن ننتكس!! (هكذا يسمون الثبات في أيام تسمية الخمر مشروبات روحيّة) حتى إذا جاء من بعدنا وجد الطريق صافياً مشرقاً، ففجر الكلمات الصامتة معارك حية ووقائع إيمان، ونفض عنها غبار التغييب فوجدها ذهباً صافياً لا اعوجاج فيه ولا أمتا.

أواه لو فهمنا سنة الحياة وسنة الحق.

* * *

حين نفهم أن مشروعنا يملأ الزمان والمكان، وأن معاركنا في كل مكان ملتهبة، وأن حصوننا تدك في كل الاتجاهات، حينها ندرك غلط وخطأ تلك الإمكانات المتواضعة التي أعددنا شبابنا لها.

أليس خطأنا نحن وجريمتنا نحن حين نختلف مع شاب أو أخ كان معنا ثم خالفنا فنكتشف فيه جهلاً في الدين، وسوءاً في الخلق، وفجوراً في الخصومة.. إنها بلا شك جريمتنا نحن حين نعمى عن رؤية أنفسنا ثم نكتشفها إذا صارت الآخر!.

هذه الجريمة الماثلة أمام أعيننا شخصاً مريضاً هي من صنع من؟ ومن الذي كرسها؟ ومن هو هذا الي تعامل مع الشباب على أنهم أداة لتنفيذ أغراضه ولم يقدم لهم شيئاً؟ وبعد أن استنفذ أغراضه راح يشتمهم!!

وحين نفهم مشروعنا يملأ الزمان والمكان، وأننا حماة لكل هذا الإرث الذي أورثناه أجدادنا من دين ولغة وقيم وأدب.. ثم نبحث عن مقدار توريثه لشبابنا بأن نرفع مستوى الفهم والوعي في داخلهم فلا نجد ــويا حسرتاهــ إلا النفخ البارد والدعوى الفجة والكبر الممقوت.

أواه أيها الأحبة كم هي صارمة سنن الحياة ولا تحابي أحداً.

وأخيراً يا حسرة هذه الكلمات إن حضرنا أنفسنا للرد عليها لأنها جاءت من هذه المجلة، ولم نفهمها على وجه النصيحة ونقد النفس ومراجعة الذات، فالنقد الذاتي صار يعني عندنا: نقد غيرنا من قبل ذواتنا ورحمة الله على الجميع.

والحمد لله رب العالمين